فقال دِمْنةُ يوْماً لأخيه كليلةُ : يا أخي ما شأْنُ الاسدِ مُقيما مكانَهُ لا يَبرحُ ولا يَنْشَطُ ، قال لهُ : كليلةُ ما شأْنُكَ أنتَ والمسألةَ عن هذا ، نحنُ على بابِ مَلكِنا آخذينَ بما أحبَّ وتاركينَ ما يكْرَهُ ولسنا من أهلِ المرتبةِ التي يتناولُ أهلُها كلامَ المُلوك والنظر في اُمورهم ، فأمسِكْ

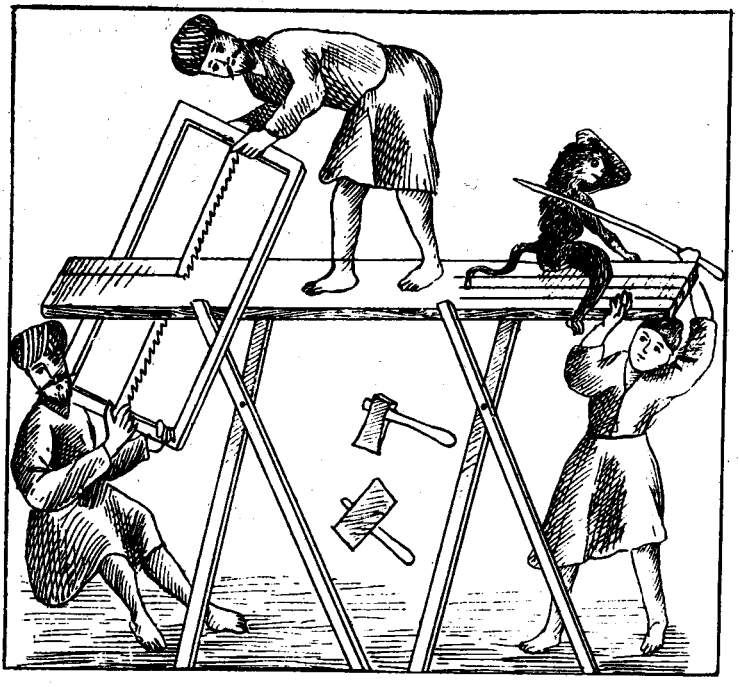

القرد راكباً على الخشبة والنجار يضربه (ش ٢٣)

عن هذا واعلمْ أنهُ من تكلَّفَ من القولِ والفِعل ما ليس من شأنهِ أصابهُ ما أصابَ القِرْدَ من النَّجَّار ، قال : دِمنةُ وكيف كان ذلك؟

قال كليلةُ : زعمُوا أنَّ قِرداً رأى نجَّاراً يشُقُّ خَشبةً وهو راكبٌ

عليها وكلَّما شقَّ منها ذِراعاً أدخَل فيها وتِداً فوقب ينْظُرُ إليه وقد أعجَبهُ ذلك ، ثمّ إنَّ النَّجّارَ ذهبَ لبعْض شأنهِ فقامَ القِردُ وتكلَّفَ ما ليْس من شأنهِ فركِبَ الخشبةَ وجعلَ ظهْرَهُ قِبَلَ الوتِدِ ووجههُ قِبَلَ الخشبةِ فتدلى ذَنَبُهُ في الشِّقّ ونزَعَ الوتدَ فلَزِمَ الشِّقُّ عليه فكاد يُغشَى عليه من الألمِ. ثم إنَّ النَّجارَ وافاهُ فأصابَهُ[1] على تلكَ الحالةِ فأقبَلَ عليه يضْرِبُه . فكانَ مالقِيَ من النَّجارِ من الضرْبِ أشدَّ ممّا أصابَهُ منَ الخشَبةِ . قال دمنةُ : قد سمِعْتُ ما ذكَرْتَ ، ولكن اعلمْ أنَّ كلَّ منْ يدْنُو من الملوكِ ليسَ يدْنُو منهمْ لبَطْنِه وإنما يدْنُو منهمْ ليَسُرَّ الصديقَ ويكْبِتَ[2] العدُوَّ ، وإنَّ من الناسِ منْ لا مُروءَةَ لهُ وهمُ الذينَ يَفْرَحونَ بالقليلِ ويَرْضوْنَ بالدُّونِ كالكلْبِ الذي يُصيبُ عَظْماً يابساً فيفرَحُ به ، وأمَّا أهلُ الفضْلِ والمرُوءةِ فلا يُقْنِعُهمُ القليلُ ولا يَرْضَوْنَ به دُونَ أنْ تَسْمُوَ[3] بهمْ نُفوسُهمْ إلى ما هُمْ أهلٌ له وهو أيضاً لهمْ أهْلٌ كالأسَدِ الذي يَفترِسُ الأرْنبَ فاذا رأى البعيرَ تَرَكَها وطلَبَ البَعيرَ ، ألا ترى أنَّ الكلبَ يُبَصْبِص[4] بذَنَبِهِ حتى

---

١ – اصابه : وجده .

٢ – يكبت : يذل ويقهر .

٣ – تسمو : تعلو .

٤ – يبصبص بذنبه : يحركه .

تُرْمى لهُ الكِسْرَةُ وأن الفيلَ المُعترَفَ بفضْلهِ وقُوَّتِه إذا قُدِّمَ إليهِ علَفُهُ لا يَعتلِفُهُ حتى يُمْسَحَ وجهُهُ ويُتملَّقَ لهُ فمنْ عاشَ ذا مالٍ وكانَ ذا فضْلٍ وإفضَالٍ على أهْلهِ وإخوانهِ فهوَ وإنْ قلَّ عُمْرُهُ طويلُ العُمُرِ ، ومنْ كانَ في عيْشهِ ضِيقٌ وقِلَّةٌ وإمْساكٌ على نفسهِ وذَويهِ فالمَقْبُورُ أحيا منهُ ، ومنْ عَمِلَ لبَطْنه وقَنِعَ وترَكَ ما سِوَى ذلكَ عُدَّ من البهائمِ . قال كليلةُ : قدْ فهِمْتُ ما قلتَ فراجعْ عقلَكَ واعلمْ أنَّ لكلِّ إنْسانٍ منزلةً وقَدْراً فإنْ كانَ في منزلتهِ التي هوَ فيها مُتماسِكا كانَ حقيقاً أن يَقنَعَ ، وليسَ لنا منَ المنزلةِ ما يَحُطُّ حالَنا التي نحنُ عليها ، قال دمنةُ : إنَّ المَنازلَ مُتنازَعةٌ مُشترَكةٌ على قَدَرِ المرُوءةِ فالمرْءُ ترفعُهُ مُرُوءتُهُ من المنزلةِ الوَضيعةِ إلى المنزلةِ الرَّفيعةِ ، ومَنْ لا مُروءةَ له يَحُطُّ نفسَهُ من المنزلةِ الرَّفيعةِ إلى المنزلةِ الوضيعةِ ، وإنَّ الارتفاع إلى المنزلةِ الشريفةِ شديدٌ والانحطاطَ منها هيّنٌ كالحجَرِ الثقيلِ ، رفْعُه منَ الأرضِ إلى العاتِقِ عَسِرٌ ووضْعهُ إلى الأرضِ هَيّنٌ ، فنحنُ أحقُّ أن نرُومَ ما فوْقنا منَ المَنازلِ وأنْ نلتمِسَ ذلكَ بمرُوءتِنا ثم كيْفَ نَقْنَعُ بمنزلَتِنا ونحنُ نستطيعُ التحوُّلَ عنها ، قال كليلةُ : فما الذي اجتمَعَ عليهِ رأيُكَ ؟ قال دمنةُ : أُريد أنْ أتعرَّضَ للأسدِ عندَ هذه الفُرْصة لأنهُ قد ظهرَ لي أنهُ صعيفُ

الرَّأي ولَعلّى على هذهِ الحالِ أدنُو منهُ فأُصيبَ عندَهُ منزلةً ومكانةً ، قال كليلةُ : وما يُدريكَ أنَّ الأسدَ قدِ التَبَسَ عليهِ أمرُهُ ، قال دمنةُ : بالحِسِّ والرَّأي أعلمُ ذلكَ منهُ فانَّ الرَّجُلَ ذا الرأيِ يَعرِفُ حالَ

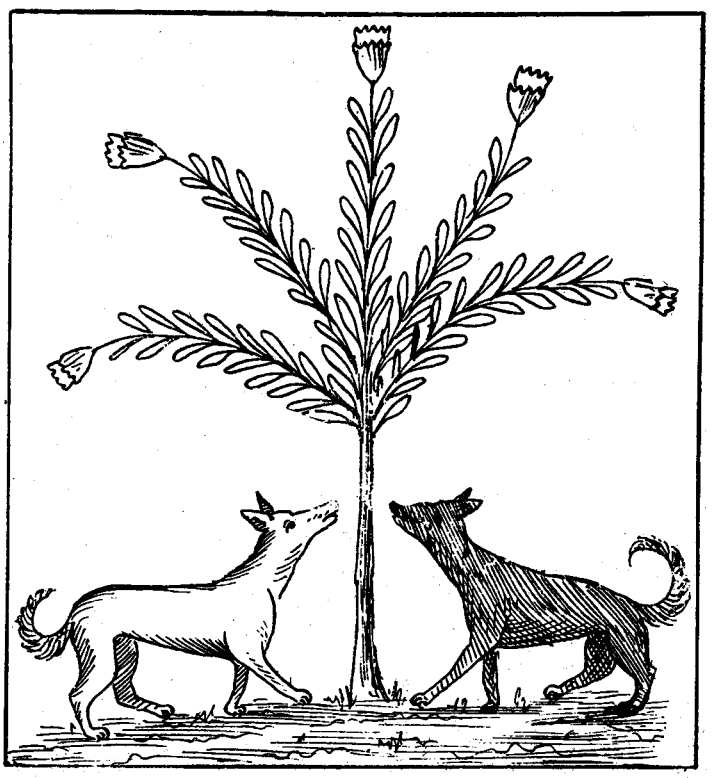

كليلة ودمنة يتجاذبان أطراف الحديث (ش ٢٤)

صاحبِه وباطِنَ أمرِهِ بمـــا يَظهَرُ لهُ من دَلِّهِ وشَكلِهِ ، قال كليلةُ : فكيفَ ترْجُو المنزلةَ عندَ الأسد ولَستَ بصاحِبِ السُّلْطانِ ولا لكَ علْمٌ بخِدْمةِ السَّلاطين ، قال دمنةُ : الرَّجُلُ الشديدُ القويُّ لا يُعجِزُهُ

الحِمْلُ الثقيلُ وإنْ لم تَكُنْ عادتُهُ الحَمْلُ ، والرَّجُلُ الضعيفُ لا يَستقِلُّ به [1] وإنْ كان ذلكَ منْ صِناعتهِ ، قال كليلةُ : فإنَّ السُّلطانَ لا يَتوخَّى [2] بكرامته فُضلاءَ مَنْ بحضْرَته ولكنهُ يُؤْثِرُ [3] الأدنى ومَنْ قَربَ منهُ ، ويُقالُ إنَّ مثَلَ السُّلْطانِ في ذلكَ مثلُ شجر الكَرْمِ الذي لا يتَعَلَّقُ بأكْرمِ الشَّجَرِ إنما يتعلَّقُ بمن دنا منهُ ، وكيْفَ ترْجُو المنزلةَ عندَ الأسدِ ولسْتَ تَدنُو منهُ .

قال دمنةُ : قد فَهِمْتُ كلامَكَ جميعَهُ وتدَبَّرْتُ [4] ما قلتَ وأنتَ صادقٌ ولكنْ اعلمْ أنَّ الذي هو قريبٌ من السُّلْطانِ ولا ذلكَ موْضعُهُ ولا تلكَ مَنزلتُهُ ليسَ كمَنْ دنا منهُ بعدَ البُعْدِ ولهُ حقٌّ وحُرْمة ، وأنا مُلتمِسٌ بُلوغَ مكانتِهمْ بجَهْدِي ، وقد قيلَ لا يُواظِبُ على بابِ السُّلطانِ إلاَّ منْ يَطْرَحُ الأَنَفَةَ [5] ويحمِلُ الأذَى ، ويكْظِمُ [6] الغَيْظَ ، ويَرْفُقُ بالنَّاسِ ويكتُمُ السِّرَّ ، فاذا وصلَ

---

١ – لا يستقل به : أي لا يحمله ولا يرفعه .
٢ – يتوخى : يتحرى ويقصد .
٣ – يؤثر : يفضل .
٤ – تدبرت : تفكرت .
٥ – الانفة : الاستكبار .
٦ – كظم الغيظ : امسكه .

إلى ذلكَ فقدْ بلَغَ مُرادَه ، قال كليلةُ : هَبْكَ [1] وصلْتَ إلى الأسدِ فما توْفيقُكَ عندَهُ الذي تَرْجو أنْ تَنالَ بهِ المنزلةَ والحُظْوَةَ لدَيْهِ ، قال دِمنةُ : لوْ دَنَوْتُ منهُ وعرَفْتُ أخلاقه لَرَفِقْتُ في مُتابَعتِه وقلةِ الخِلافِ لهُ وإذا أرادَ أمْراً هو في نفْسهِ صوابٌ زيَّنْتُه له وصبَّرْتُهُ عليهِ وعرَّفتُهُ بما فيه منَ النَّفْعِ والخيْرِ وشجَّعْتُهُ عليه وعلى الوُصولِ إليه حتى يزْدَادَ به سروراً ، وإذا أرادَ أمْراً يُخافُ عليهِ ضَرُّهُ وشَيْنُهُ [2] بصَّرْتُهُ بما فيه منَ الضرِّ والشيْنِ وأطلعْتُهُ على ما في ترْكِهِ من النَّفْعِ والزَّيْنِ بحسَبِ ما أجد إليهِ السبيلَ ، وأنا أرْجو أن أزْدادَ بذلكَ عندَ الأسدِ مكانةً ويَرى منّي ما لا يَراهُ منْ غيري ، فانَّ الرَّجلَ الأديبَ الرَّفيقَ [3] لوْ شاءَ أنْ يُبْطِلَ حقًّا أو يُحِقَّ باطلاً لَفعَلَ كالمصوِّرُ الماهرِ الذي يُصوِّرُ في الحيطان صُوَراً كأنها خارجة وليستْ بخارجةٍ وأخرَى كأنهـــا داخلةٌ وليستْ بداخلةٍ ، فاذا هو عرَفَ ما عنْدِي ، وبانَ لهُ حُسْنُ رَأْيي وجُودةُ فِكْري ، الْتَمسَ إكرامِي وقرَّبني إليهِ .

---

١ – هبك : هب انك .

٢ – شينه : عيبه .

٣ – الرفيق : من الرفق وهو اللطف واللين .

قال كليلةُ : أمَّا إنْ قلتَ هذا أو قلتَ هذا فإني أخافُ عليك من السُّلطانِ فانَّ صُحْبتَهُ خطِرَةٌ ، وقد قالتِ العلماءُ إنَّ ثلاثة لا يجترِيءُ عليهنَّ إلاَّ أهوَجُ ولا يَسلَمُ منهنَّ إلاَّ قليلٌ ، وهيَ صُحْبةُ السُّلْطانِ وائْتِمانُ النساءِ على الأسرارِ ، وشُرْبُ السُّمِّ للتَّجْرِبةِ ، وإنما شَبَّهَ العلماءُ السلْطان بالجبلِ الصَّعْبِ المُرْتقَى [1] الذي فيهِ الثِّمارُ الصَّيبةُ والجواهر النَّفيسةُ والأدويةُ النافعةُ وهو معَ ذلكَ مَعْدِنُ السِّباعِ والنُّمُورِ والذئابِ وكلِّ ضارٍّ مَخُوفٍ ، فالارْتِقاءُ إليهِ شديدٌ والمُقـــامُ فيه أشدُّ ، قال دمنةُ : صدَقْتَ فيما ذَكرْتَ غيرَ أنه مَن لمْ يَرْكَبِ الأهوالَ لم يَنَلِ الرَّغائب ومنْ ترَكَ الأمرَ الذي لعلهُ يبْلُغُ فيه حاجتَهُ هيْبةً ومَخافةً لِما لعلَّهُ أنْ يتوَقَّاهُ فليْسَ بالِغٍ جسيماً ، وقـــد قيلَ إنَّ خِصالاً ثلاثةً لنْ يَستطيعَها أحدٌ إلاَّ بمَعُونة منْ عُلوِّ همَّةٍ وعظيمِ خطَرٍ منها صُحْبةُ السُّلْطانِ وتجارةُ البحرِ ومُناجزَةُ العدوِّ ، وقد قالتِ العلماءُ في الرَّجُلِ الفاضلِ الرَّشيدِ إنهُ لا ينبغي أنْ يُرَى إلاَّ في مكانيْنِ ولا يَليقُ به غيرُهما إمَّا معَ المُلوكِ مُكرَّماً أو معَ النُّسَّاكِ مُتعبِّداً ، كالفيلِ إنما جَمالُهُ وبهاؤُهُ في مكانيْنِ إمَّا أنْ تراهُ وحْشيًّا أو مَرْكَباً للملوكِ ، قال كليلةُ : خارَ اللهُ لكَ [2] فِيما عزَمْتَ عليه .

---

١ — المرتقى والمرقي : موضع الرقي .

٢ — خار الله لك : أي جعل لك فيه الخير .

ثمَّ إنّ دمنةَ أنطلَقَ حتى دخل على الأسدِ فعفَّرَ وجهَهُ[1] بينَ يديْهِ وسلَّمَ عليهِ ، فقال الأسدُ لبعضِ جُلسائهِ : مَنْ هذا : فقال : فلانُ ابن فلانٍ ، قال : قدْ كنتُ أعرِف أباهُ ، ثمّ سألَهُ أينَ تكونُ ؟ قال : لمْ أزَلْ مُرابطاً ببابِ الملكِ رجاءَ أنْ يحضُرَ أمْرٌ فأُعينَ الملكَ فيه بنفْسي ورأيي ، فانَّ أبوابَ الملوكِ تكثُرُ فيها الأُمورُ التي ربّما يحتاجُ فِيها إلى الذي لا يُؤبَه[2] به وليسَ أحدٌ يَصْغُرُ أمرُه إلاّ وقد يكونُ عندَه بعضُ الغَناءِ والمَنافعِ على قدَرِه حتى العُودُ المُلقَى في الأرْضِ ربّما نفَعَ فياخُذُه الرّجُلُ فيكونُ عُدَّتَهُ عندَ الحاجةِ إليهِ .

فلما سمِعَ الأسدُ قوْلَ دمنةَ أعجَبَهُ وظنَّ عندَهُ نَصيحةً ورأْيا فأقبلَ على مَنْ حضَرَ فقالَ : إنَّ الرجلَ ذا النبْلِ[3] والمروءةِ يكونُ خاملَ الذِّكْرِ مُنْخَفِضَ المنزلةِ ، فتأبَى مَنزلتُه إلاّ أنْ تَشُبَّ وتَرتَفعَ كالشُّعلةِ من النّارِ يَضرُبُها صاحبُها وتَأبَى إلاّ ارْتِفاعاً .

فلما عرَفَ دِمنةُ أنَّ الأسدَ قدْ عَجِبَ منهُ ، قال : أيُّها الملكُ إنّ رعيةَ الملكِ تَحْضُرُ بابَهُ رَجاءَ أنْ يَعرِفَ ما عندَها منْ علمٍ وافر ،

---

١ – عفر وجهه : مرغه .

٢ – يؤبه : من ابه به ابهاً فظن أو نسي ثم تفطن له .

٣ – النبل : الذكاء والنجابة .

وقد يقالُ إنّ الفضلَ في أمرَيْنِ : فضْلُ القاتِلِ على المُقاتِلِ والعالِمِ على العالِمِ ، وإنّ كثرَةَ الأعوانِ إذا لم يكونوا مُختبَرِينَ رُبما تكُونُ مَضَرَّةً على العمَلِ ، فانّ العمَلَ ليْس رَجاؤُهُ بكثرَةِ الأعوانِ ولكنْ

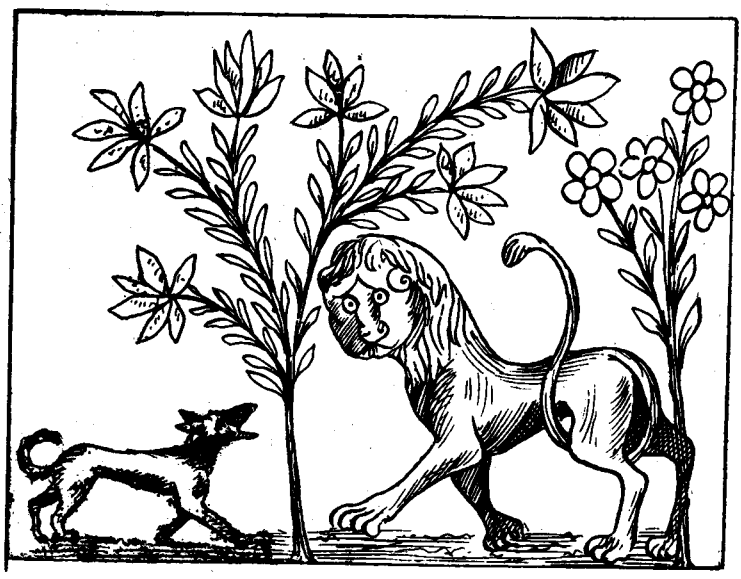

دمنة بين يدي الاسد (ش ٢٥)

بصالحي الأعوانِ ، ومثَلُ ذلكَ مثَلُ الرُجــلِ الذي يَحْمِلُ الحجَرَ الثّقيلَ فيقْتُلُ به نفْسَهُ ولا يجدُ له ثمَناً ، والرَّجُلُ الذي يحْتاجُ إلى الجذُوعِ لا يُجْزئهُ[1] القَصَبُ وإنْ كثُرَ ، فأنتَ الآنَ أيُّها المِلِكُ حقِيقٌ ألاَّ تَحْقِرَ مرُوءَةً أنتَ تجدُها عندَ رُجلٍ صغيرِ المنزِلةِ فإنَّ

---

١ — الجذوع ج جذع . وهو ساق النخلة . ويجزئه : يكفيه .

الصغيرَ رُبما عَظُمَ كالعَصَب الذي يُؤْخذُ منَ المَيْتةِ فإذا عُمِلَتْ منهُ القَوْسَ أكرِم فتَقْبِضُ عليهِ الملوكُ وتحتاجُ إليهِ في البأْسِ واللَّهْو .

وأَحبَّ دمنةُ أنْ يُرِيَ القومَ أنَّ ما نالَهُ منْ كَرامةِ المِلكِ إنما هوَ لرَأيهِ ومُروءَتِه وعقْلهِ لأنهمْ عَرَفوا قبلَ ذلكَ أنّ ذلكَ لِمعرفتهِ أباهُ ، فقال: إنَّ السُّلْطانَ لا يُقَرِّبُ الرجالَ لِقُرْبِ آبائهمْ ولا يُبْعدُهُمْ لِبُعدِهِمْ ولكنْ ينبغي أنْ يَنظُرَ إلى كلِّ رُجلٍ بما عندَه لأنه لا شيءَ أقرَبُ إلى الرَّجلِ من جسدِه ومنْ جسدِهِ ما يَدْوَي [1] حتى يُؤْذيَهُ ولا يَدْفَعُ ذلكَ عنهُ إلاَّ بالدَّواءِ الذي يأتيهِ منْ بَعْدُ .

فلما فرَغَ دِمنةُ منْ مَقالتِهِ هذهِ أُعْجِبَ الأسدُ به إعْجاباً شديداً وأحسنَ الرَّدَّ عليه وزادَ في كرَامته ، ثم قال الملكُ لجلسائهِ : ينبغي للسُّلطانِ ألاَّ يَلِجَّ في تَضْييعِ حقِّ ذَوِي الحقوقِ ، والنَّاسُ في ذلكَ رُجلانِ : رُجلٌ طبْعُهُ الشَّراسة فهوَ كالحيَّةِ إنْ وطِئَها [2] الواطِيءُ فلمْ تَلْدَغْهُ لم يكن جديراً أنْ يَغُرَّهُ ذلكَ منها فيَعودَ إلى وطْئها ثانياً فتَلْدَغَه ، ورَجلٌ أصْلُ طِباعِه السُّهولةُ فهوَ كالصَّنْدَلِ [3] الباردِ الذي

---

١ – يدوي : يصيبه داء .

٢ – وطئها : داسها .

٣ – الصندل : نوع من الخشب .

وإنّ محالَكَ هذا ينفَعُكَ مع عِظَمِ جُرْمِكَ ، قال دمنةُ : الكَذُوبُ هو الذي يقُولُ ما لمْ يكُنْ ويأتي بما لم يُقَلْ ولم يُفْعَلْ وكلامي حقٌّ مُبينٌ ، قالتْ أمُّ الأسد : العُلماءُ منكم منْ قَضَى حاجتَهُ فيه ، ثم نَهضَتْ فخرجتْ ، فدَفع الأسدُ دمنةَ إلى القاضي فأمرَ القاضي بحبسهِ فأُلقى في عُنقُه حَبلٌ وأُنطُلقَ به إلى السّجْن .

فلمّا انْتصَفَ اللّيـــلُ اُخبرَ كليلةُ أنّ دمنةَ في الحبْس فأتاهُ مُسْتخْفياً فلمَّا رآهُ وما هُو عليه منْ ضِيق القُيُود وحرَجِ[1] المكانِ بكى وقال لهُ : ما وصلْتَ إلى ما وصَلْتَ إليه إلاّ لاسْتعْمالِكَ الخديعةَ والمكْرَ وإضرابِكَ[2] عن الْعِظةِ ، ولكنْ لم يكنْ لي بُدٌّ فيما مضَى منْ إنْذارِكَ والنّصيحةِ لكَ والمُسارعةِ إليْكَ في خُلُوصِ الرَّغْبةِ فيكَ ، فانه لكلِّ مَقامٍ مقالٌ ، ولكلِّ موْضعٍ مَجَالٌ ، ولوْ كنتُ قصَّرْتُ في عِظَتكَ حين كنتَ في عافيةٍ لكنْتُ اليومَ شَريكَكَ في ذنْبكَ ، غيرَ أنَّ العُجْبَ[3] دخلَ منكَ مدْخلاً قهرَ رأيكَ وغلَب على عقْلِكَ ، وكنتُ أضرِبُ لك الامْثال كثيراً واُذَكّرُكَ قوْلَ

---

١ — حرج : ضيق .
٢ — إضرابك : إعراضك .
٣ — العجب : الكبر .

العلماء ، وقدْ قالتِ العلماءُ : إنّ المُحْتالَ يموتُ قبْلَ أجَلِهِ ، قال دمنةُ : قدعرَفْتُ صِدْقَ مقالتِكَ ، وقد قالتِ العلماءُ : لا تجْزَعْ من العذاب اذا وقعْتَ منكَ خطيئة ، ولَأنْ تُعذَّبَ في الدُّنيا بجُرْمِكَ خيرٌ مِنْ أنْ تُعذَّبَ في الآخرةِ بجهنمَ مع الإثمِ . قال كليلةُ : قدْ فَهِمتُ كلامَكَ ولكنَّ ذنْبَكَ عظيمٌ وعقابَ الأسدِ شديدٌ أليمٌ ، وكان بقُرْبِها في السجْنِ فَهْدٌ مُعتقَلٌ[1] يَسْمَعُ كلامَهُما ولا يَرَيانِهِ ، فعرَفَ مُعاتبةَ كليلةَ لدمنةَ على سُوءِ فعلِهِ وما كان منهُ ، وأنَّ دمنةَ مُقِرٌّ بسُوءِ عملِهِ وعظيمِ ذنْبِهِ فحفِظَ المُحاورةَ بينهما وكتمَها ليَشْهَد بها إنْ سُئلَ عنها ، ثمّ إنّ كليلةَ انصرفَ إلى منزلِهِ ودخلتْ أمُّ الأسدِ حينَ أصْبَحتْ على الأسد فقالتْ لهُ : يا سيِّدَ الوُحوشِ حُوشِيتَ[2] أنْ تَنسَى ما قُلتَ بالأمسِ ، وإنّكَ أمَرْتَ به لوقْتِهِ وأرْضَيْتَ به ربَّ العِباد ، وقدْ قالتِ العُلماءُ لا ينْبغي للإنْسانِ أنْ يتولَّى في الجِدِّ للتَّقْوى ، بلْ لا ينبغي أنْ يُدافِعَ عن ذنْبِ الأثيمِ ، فلما سمعَ الأسدُ كلامَ أمّهِ أمرَ أنْ يَحْضُرَ النَّمِرُ وهو صاحبُ القَضاءِ ، فلما حضَرَ قال

---

١ — معتقل : محبوس .

٢ — حوشيت : نزهت .

لهُ : وللجوّاسِ [1] العادلِ : اجْلِسَا في موْضعِ الحكمِ ونادِيَا في الجُنْدِ صغيرِهِمْ وكبيرِهِمْ أنْ يحضُرُوا وينظُرُوا في حالِ دمنةَ ويبْحَثُوا عن شأنِه ويفْحَصُوا عن ذنْبِه ويُثبِتُوا قولَهُ وعُذْرَهُ في كُتُبِ القضاءِ وارْفعا إليّ ذلكَ يوْماً فيوْماً ، فلما سمعَ النمِرُ ذلكَ والجوّاسُ العادلُ ، وكانَ هـذا الجوّاسُ عمّ الأسدِ قالاَ : سمْعاً وطاعةً لِما أمرَ الملكُ وخرَجا من عِنْدِهِ فعمِلاَ بمقتضَى ما أمرَهما به حتى إذا مضَى من اليَوْمِ الذي جلَسُوا فيه ثلاثُ ساعاتٍ أمرَ القاضِي أنْ يؤْتَى بدمنةَ فأُتِيَ بـه فاوقِفَ بينَ يدَيْه والجماعةُ حُضورٌ .

فلما اسْتقرَّ به المكانُ نادَى سيّدُ الجمْعِ بأعْلى صوْتِه : أيُّها الجمْعُ إنكم علِمتمْ أنّ سيدَ السّباعِ لم يزَلْ مُنذُ قَتلَ شترَبةَ خاثِرَ [2] النفْسِ كثيرَ الهمّ والحُزْنِ يرَى أنهُ قدْ قتلَ شترَبةَ بغيرِ ذنبٍ وأنهُ أخذَهُ بكَذِبِ دمنةَ ونميمتِه ، وهـــذا القاضِي قدْ اُمِرَ أنْ يجلِسَ مجلسَ القضاءِ ويَبْحثَ عن شأنِ دمنةَ ، فمنْ علمَ منكم شيئًا في أمرِ دمنةَ منْ خيرٍ أوْ شرٍّ فلْيقُلْ ذلك ولْيتكلّمْ به على رؤوسِ الجمعِ والأشْهادُ ليكونَ القَضاءُ في أمرِه بحسبِ ذلكَ ، فاذا استوْجَبَ القتْلَ

---

١ — الجواس : من اسماء الاسد وهو من جاس اذا تردد خلال الدور .

٢ — خاثر النفس : منقبضها .

فالتثبُّتُ في أمرِه أوْلى ، والعجَلةُ من الهوَى[1] ، ومُتابعة الأصْحابِ على الباطِلِ ذُلٌّ ، فعندَها قال القاضي : أيها الجمعُ اسْمَعُوا قوْلَ سيّدِكمْ ولا تكتُمُوا ما عرَفتمْ منْ أمرِه ، واحْذرُوا في السَّترِ عليهِ ثلاثَ خِصالٍ : أما إحداهُنَّ وهيَ أفْضلهنَّ فلا تَزْدَرُوا فِعلَهُ ولا تَعدُّوهُ يسيراً فمنْ أعظمِ الخطايا قتْلُ البريءِ الذي لا ذَنبَ لهُ بالكذِبِ والنميمةِ ، ومَنْ علِمَ منْ أمرِ هـــذا الكذّابِ الذي اتهمَ البريءَ بكَذِبهِ ونميمتهِ شيئاً فسترَ عليه فهو شَريكُهُ في الإثمِ والعُقوبةِ ، والثانيةُ : إذا اعترَفَ المُذْنبُ بذَنْبه كان أسْلَمَ لهُ ، والأحْرَى بالملكِ وجُنْدِه أنْ يَعْفُوا عنهُ ويَصفَحُوا ، والثالثةُ : تركُ مُراعاةِ أهْلِ الذَّمِّ والفجُورِ ، وقطْعُ أسبابِ صلاتِهمْ ومَودَّتِهمْ عن الخاصَّةِ والعامَّةِ ، فمنْ عَلِمَ منْ هذا المُحتالِ شيْئاً فلْيتكلَّمْ بهِ على رُؤوسِ الأشهادِ ممنْ حضَرَ ليكونَ ذلكَ حُجَّةً عليه ، وقد قيلَ إنهُ منْ كتمَ شهادَةَ ميّتٍ أُلجمَ بلجامٍ من نارٍ يومَ القيامةِ ، فلْيقلْ كلُّ واحدٍ منكمْ ما عَلِمَ ، فلما سمعَ ذلك الجمْعُ كلامَهُ أمْسَكُوا عن القوْلِ ، فقال دمنةُ : مـــا يُسكِتُكمْ تكلموا بما عَلمتمْ واعلَموا أنَّ لكلِّ كلمةٍ جوابا ، وقدْ قالتِ العُلماءُ : مَنْ يَشْهَدْ بما لم يرَ ويقولُ مالاَ يَعلمْ أصابَهُ ما أصابَ الطَّبيبَ

---

١ — الهوى : ميل النفس المذموم فيقال اتبع هواه وهو من اهل الاهواء .

مُسرعاً حتى أتى دِمنةَ فحدَّثهُ بالحديثِ . فبينما هوَ عندَهُ إذ جاءَ فَيْجٌ[1] فانطلَقَ بدِمنةَ إلى المَجْمَعِ عندَ القاضي .

فلما مَثَلَ بينَ يَدَيِ القاضي اسْتَفتَحَ سيِّدُ المجلسِ فقال : يا دمنةُ قدْ أُنبأني عنْ خبرِكَ الأمينُ الصَّادقُ وليسَ ينبغي لنا أنْ نَفْحَصَ عنْ شأنِكَ أكثرَ منْ هذا لأنَّ العلماءَ قالوا : إنَّ اللهَ تعالى جعَلَ الدنْيا سبَباً ومِصْداقاً[2] للآخرةِ لأنها دارُ الرُّسلِ والأنْبياءِ الدَّالِّينَ على الخيرِ الهادِينَ إلى الجنةِ الدَّاعينَ إلى معرفةِ اللهِ تعالى ، وقدْ ثبَتَ شأنُكَ عندَنا وأخبرَنا عنْكَ مَنْ وَثِقْنا بقوْلِهِ ، إلاَّ أنَّ سيِّدَنا أمرَنا بالعَوْدِ الى أمْرِكَ والفَحصِ عنْ شأنِكَ وانْ كانَ عِنْدَنا ظاهراً بيِّناً . قال دِمنةُ : أراكَ أيهـــا القاضي لمْ تتعوَّدِ العدْلَ في القضاءِ ، وليسَ في عَدْلِ المُلوكِ دَفْعُ المظْلومينَ ومَنْ لا ذَنْبَ لهُ الى قاضٍ غيرِ عادلٍ بَلِ المُخاصَمَةُ لهمْ والذَّوْدُ[3] عنْ حقُوقهمْ ، فكيْفَ ترَى أنْ اُقْتَلَ ولمْ اُخاصَمْ وتُعجِّلَ ذلكَ موافقةً لهواكَ ولمْ تمضِ بعدُ ثلاثةُ أيامٍ ، ولكنْ صَدَقَ الذي قالَ إنَّ الذي تَعوَّدَ عمَلَ البِرِّ هيِّنٌ عليهِ عَمَلُهُ وإنْ أضرَّ بهِ .

---

١ — الفيج : هو الذي يدخل السجن ويخرج ويحرس وجمعه فيوج .

٢ — مصداقاً للآخرة : اي ما يصدقها .

٣ — الذود : الدفاع .

قال القاضي : إنا نجدُ في كتُبِ الاوَّلينَ أنَّ القاضيَ العـــدْلَ ينبغي لهُ أنْ يَعْرِفَ عَمَلَ المُحْسِنِ والمُسيءِ لِيُجازِيَ المحسنَ بإحْسانِه والمسيءَ بإساءتِه ، فإذا ذَهَبَ إلى هــذا ازْدَادَ المُحسنونَ حِرْصاً على الإحْسانِ والمُسيئونَ اجْتِناباً للذُّنوبِ ، والرَّأيُ لكَ يا دمنةُ أنْ تَنظُرَ الذي وقَعْتَ فيهِ وتَعْترفَ بذَنْبِكَ ، وتُقِرَّ بهِ وتتُوبَ ، فأجابهُ دِمنةُ : إنَّ صالِحي القُضَاةِ لا يَقطعون [1] بالظنِّ ولا يَعْمَلونَ بهِ لا في الخاصَّةِ ولا في العامَّةِ لِعِلْمِهِمْ أنَّ الظَّنَّ لا يُغنى منَ الحَقِّ شيئاً ، وأنتمْ إنْ ظَننتمْ أني مُجرمٌ فيما فعَلْتُ فاني أعلمُ بنفسي منكمْ وعِلْمي بنفسي يَقينٌ لا شكَّ فيهِ وعِلْمُكمْ بي غايةُ الشَّكِّ ، وإنمـــا قُبْحُ أمرِي عِنْدَكمْ أني سعَيْتُ بغيري [2] فما عُذْرِي عندكم إذا سعَيْتُ بنفسِي كاذِباً عليها فأسْلَمْتُها إلى القَتْلِ والعَطَبِ على معرفةٍ مني ببرَاءتي وسلامَتِي ممَّـــا قُرِفْتُ بهِ [3] ونفسي أعظَمُ الأنْفُسِ عليَّ حُرْمةً وأوْجبُها حقًّا ، فلوْ فَعلْتُ هذا بأقْصاكمُ وأدْناكمُ لَمـــا وسِعَني [4] في دِيني ولا حَسُنَ بي في مُرُوءَتِي ولا حُقَّ لي أنْ أفعلهُ فكيْفَ أفعلُهُ

---

١ – لا يقطعون : بمعنى لا يوقنون .

٢ – سعيت بغيري : اي وشيت به .

٣ – قرفت : اي اتهمت .

٤ – لما وسعني : اي لما جاز لي .

بنَفْسِي ، فاكْفُفْ أيها القاضي عنْ هذهِ المقالةِ فإنها إنْ كانتْ منكَ نصيحةً فقـــدْ أخطأتَ موْضِعَها ، وإنْ كانتْ خديعةً فإنَّ أقبحَ الخِدَاعِ ما نَظَرْتَهُ وعَرَفتَهُ منْ غيرِ أهلهِ ، معَ أنَّ الخداعَ والمكرَ ليْسَا من أعمالِ صالِحي القُضاةِ ولا ثِقاتِ الوُلاةِ .

واعلمْ أنَّ قولَكَ ممَّـــا يَتَّخذُهُ الجُهَّالُ والأشرارُ سُنَّةً [1] يَقتَدُونَ بهـــا لأنّ أمورَ القضاءِ يأخُذُ بصوابِها أهلُ الصَّوابِ ، وبخَطإِها أهلُ الخطأ والباطل والقليلُو الورَعِ وأنا خَائفٌ عليك أيها القاضي منْ مَقالتِكَ هذهِ أعظمَ الرَّزايا والبَلايا ، وليسَ من البـــلاءِ والمصيبةِ أنكَ لمْ تزَلْ في نفْسِ الملكِ والجُندِ والخاصةِ والعامّةِ فاضلاً في رأيكَ مُقْنِعاً في عدْلِكَ مَرْضِيًّا في حُكمِكَ وعَفافِكَ وفضلِكَ ، وإنما البلاءُ كيف انُسيتَ ذلك في أمري ، أوَ ما بلَغَكَ عن العُلماءِ أنهمْ قالوا مَنِ ادَّعى عِلْمَ ما لا يعلَمُ وشهِدَ على الغيبِ أصابهُ مـــا أصابَ البازِيارَ [2] القاذفَ زوْجةَ مولاهُ . قال القاضي : وكيف كان ذلكَ ؟

قال دمنةُ : زَعَمُوا أنهُ كان في بعضِ المدُنِ رجلٌ منَ المَرَازِبَةِ [3] مذْكورٌ ، وكانتْ لهُ امرأةٌ ذاتُ جَمـــالٍ وعَفافٍ وكان للرَّجُلِ

---

١ – سنة : طريقة .

٢ – البازيان : مربي البازي وجمعه بزاة .

٣ – المرازبة ج مرزبان : وهو رئيس الفرس .

بازيارٌ ماهرٌ خبيرٌ بعِلاجِ البُزاةِ وسياستِها ، وكان هذا البازيارُ عندَ هذا الرُجلِ بمكانِ خليلٍ بحيثُ إنهُ أدخلَهُ دارَهُ وأجلَسَه مع حَرَمِه فاتَّفقَ أنَّ البازيارَ رَاوَدَ زوجةَ مولاهُ عنْ نفسِهـــا فأَبتْ عليهِ وتَسَخَّطَتْ لذلكَ وتَمَعَّرَ[1] وجهُها واحْمَرَّتْ خجَلاً وزادَ امتناعُها عليهِ وحرَصَ عليها كلَّ الحِرْصِ وعَمِلَ الحيلةَ في بلوغِ غرَضِه منها وضاقتْ عليهِ أبوابُ الحِيَل فخرَجَ يوماً إلى الصَّيْدِ على عادتِه فأصابَ فَرْخَيْ بَبْغاءَ فأخذَهُما وجاء بهما إلى منزلِهِ ، فلما كَبِرَا فرَّقَ بينَهُما وجعَلَهُما في قَفَصَيْنِ وعلَّمَ أحدَهما أنْ يقولَ : رأيتُ منْ مولاتي ما يُخِلُّ بالعَفَافِ ، وعلَّمَ الآخرَ أن يقولَ : أمَّا أنا فلا أقولُ شيئاً . ثمَّ أدَّبَهُما على ذلكَ حتى أتْقناهُ وحذَقاهُ في ستة أشهُرٍ ، فلما بلَغَ الذي أرادَ منهما حَمَلَهُما إلى أُستاذِه فلمَّا رآهمـــا أعْجَبَاهُ ونطَقا بين يديهِ فأطرَباهُ ، إلا أنهُ لمْ يَعلَمْ ما يقولانِ لأنَّ البازِيَارَ كانَ قدْ علَّمَهُما بلُغَةِ البَلْخِيِّينَ .

وإنَّ المَرْزُبانَ أُعجِبَ منهما إعْجاباً شديداً وحَظِيَ البازيارُ عندهُ بذلكَ حُظْوَةً كريمةً فأمرَ امرأتَهُ بالاحْتياطِ عليهما والمراعاةِ لهما ففَعَلتِ المرأةُ ذلكَ ، فاتفقَ أنهُ بعدَ مدةٍ قَدِمَ على الرَّجُلِ قومٌ

---

١ – تمعر وجهه : تغير غيظا .

منْ عُظَماءِ بَلْخَ فتأنَّقَ لهم في الطعامِ والشرابِ وجمَعَ منْ أصنافِ الفواكهِ والتُّحَفِ شيئاً كثيراً وحضَرَ القومُ ، فلمَّا فرَغوا من الطعامِ وشرَعوا في الحديثِ أشارَ المَرْزُبانُ إلى البازيارِ أن يأتيَ بالبَبْغاتَيْنِ

الباز يفقأ عين البازيار بحضور الرجل وامرأته وضيوفهما (ش ٤٢)

فأحضَرَهُما ، فلما وُضِعَتا بين يديْهِ صاحَتا بما كانتَا عُلِّمَتاهُ فعرَفَ أُولئك العظماءُ ما قالتَا فنَظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ ونكَسُوا رؤُسَهم حَياءً وخجَلاً فسألهمُ الرَّجلُ عمَّا تقولانِ ، فامتنَعُوا أنْ يقولوا ما قالتا فألحَّ

عليهمْ وأكثرَ السؤالَ عما قالتا ، فقالوا : إنما تقولانِ كذا وكذا وليسَ منْ شأنِنا أنْ نأكلَ منْ بيتٍ يُعْمَلُ فيهِ الفُجُورُ . فلمّا قالوا ذلكَ سألهمُ الرَّجُلُ أنْ يكلِّمُوهما بلسانِ البَلْخيَّةِ بغيرِ ما نَطقَتا به ففعَلوا ذلكَ فلمْ يَجدوهُما تَعْرِفانِ غيرَ ما تَكلَّمَتا به وبَانَ لهمْ وللجماعةِ حَصانةُ المرأةِ وبَراءتُها ممَّا رُمِيَتْ بهِ ووَضحَ كِذْبُ البازِيارِ . فأمرَ بالبازيارِ أنْ يَدْخُلَ عليهِ وكانَ على يدَيْهِ بازٌ أشْهَبُ [1] فصاحتْ بهِ امرأةُ المَرْزُبَانِ منْ داخلِ البيتِ : أيُّها العَدُوُّ لِنفْسِهِ أنتَ رأيتَني على ما ذكَرْتَ وعَلَّمْتَ بهِ البَبْغاتَينِ ؟ قال: نعمْ. أنا رأيتُكِ على مِثْلِ ما تقولانِ ، فوثَبَ البازِي إلى وجهِهِ ففقأ عينَهْ بمخالبِه فقالتِ المرأةُ : بحقٍّ أصابَكَ هذا إنهُ لجَزاءٌ منَ اللهِ تعالى لشَهادتِكَ بما لمْ تَرَهُ عينُكَ .

وإنما ضربتُ لكَ هذا المثَلَ أيها القاضي لتزدادَ علْماً بوَخامَةِ عاقبةِ الشهادَةِ بالكَذِبِ في الدنيا والآخرةِ ، فلما سَمِعَ القاضي ذلكَ منْ لفظِ دِمنةَ نَهَضَ فرفَعَهُ إلى الأسدِ على وجهه [2] فنظَرَ فيه الأسدُ ثم دعا أُمَّهُ فعرَضَهُ عليها فقالتْ حينَ تدَبَّرَتْ كلامَ دمنةَ للأسدِ : لقدْ

---

١ ــ الاشهب : من الالوان ما غلب بياضه على سواده .

٢ ــ على وجهه : أي على حكمه .

صارَ اهتمامي بما أتخوَّفُ منْ احتيالِ دمنةَ لكَ بمكْرِهِ ودَهائِهِ حتى يَقْتُلَكَ أوْ يُفْسِدَ عليكَ أمرَكَ أعظمَ منِ اهتمامِي بما سَلَفَ منْ ذنْبِهِ إليكَ في الغِشِّ والسِّعايَةِ حتى قتَلْتَ صديقَكَ بغيرِ ذنْبٍ ، فوقعَ قولُها في نفسِهِ فقال لها : أخبريني عنِ الذي أخبرَكِ عنْ دمنةَ بمـــا أخبرَكِ فيكونَ حُجَّةً لي في قتلِ دِمنةَ . قالتْ : لأكرَهُ أن أفشِيَ سِرَّ منِ استكْتَمَنِيهِ ، فلا يَهنِئُني سروري بقتلِ دمنةَ إذا تذكَّرْتُ أني استَظْهَرْتُ عليهِ برُكوبِ ما نهَتْ عنهُ العلماءُ منْ كشْفِ السِّرِّ ، ولكنِّي أُطالبُ الذي استوْدَعَنيهِ أنْ يُحالِلَني منْ ذِكْرِهِ لكَ ويقومَ هو بعلمِهِ وما سَمِعَ منه ، ثمّ انصرَفَتْ وأرسلَتْ إلى النَّمِرِ وذَكَرتْ له ما يَحِقُّ عليهِ من التزْيينِ للأسدِ وحُسْنِ مُعاونتِهِ على الحقِّ وإخراجِ نفسِهِ من الشهادةِ التي لا يكتمُها مثلُهُ مع مـــا يَحِقُّ عليهِ منْ نصْرِ المظلومينَ وتثبيتِ حُجّةِ الحقِّ في الحياةِ والمماةِ ، فإنّ العلماءَ قدْ قالتْ : منْ كتَمَ حُجَّةَ ميِّتٍ أخطأَ حُجتَهُ يومَ القيامةِ ، فلمْ تَزَلْ به حتى قامَ فدَخلَ على الأسدِ فشهِد عندَهُ بما سَمِعَ منْ إقرارِ دِمنةَ .

فلما شَهِدَ النَّمِرُ بذلكَ أرسلَ الفَهْدُ المسجونُ الذي سَمِعَ إقرارَ دمنةَ وحَفِظَهُ إلى الأسدِ فقال : إنّ عندي شهادةً فأخرجوهُ فشهِدَ على دِمنةَ بمـــا سمعَ منْ إقرارِهِ ، فقال لهما الأسدُ : ما مَنعكما أن تقُوما

بشهادتكما وقد عَلِمْتُما أمرَنا واهتمامَنا بالفَحْصِ عنْ أمرِ دمنةَ ، فقال كلٌّ واحدٍ منهما : قد عَلِمْنا أنَّ شَهادةَ الواحدِ لا توجبُ حُكماً فكَرِهْنا التعرُّضَ لغيْرِ ما يَمضي بهِ الحُكمُ ، حتى إذا شَهِدَ أحدُنا قامَ الآخرُ بشهادتِه ، فقَبِلَ الأسدُ قولَهُما وأمرَ بدِمنةَ أنْ يُقتَلَ في حَبْسِه فقُتِلَ أشْنعَ قَتْلةٍ .

فمنْ نظَرَ في هذا فلْيعلَمْ أنَّ من أرادَ منفعةَ نفسهِ بضَرِّ غيره بالخِلابَةِ [1] والمكْرِ فانهُ سيُجْزَى على خِلابتِه ومكْرِهِ .

---

١ – الخلابة ، بالكسر : الخديعة .